

الفرس لأيسخيلوس

بمّتلّم

الدكتور محمد سليم سالم

وأشاد بها سيثرون (في القرن الأول قبل الميلاد) .
فلا غرو إن نشأ أيسخيلوس ورعاً تقياً يدافع عن العدالة الإلهية .

كان لأيسخيلوس أخ وأخت ؛ أما أخوه فقد
إشترك في موقعة ماراثون سنة ٤٩٠ وأظهر بسالة نادرة .
أما أخته فهي أم الشاعر المسرحي فيلوكليس الذي
انتصر على سوفوكليس عندما عرض الأخير أعظم
قصصه ، أوديب ملكاً .

إننا لا ندرى متى ولد أيسخيلوس ولكننا نعرف
أنه فاز بالجائزة الأولى لأول مرة في سنة ٤٨٤ ق . م .
وقد استنتج النقاد من ذلك أنه عرض أول قصة له
حوالى سنة ٥٠٠ ق . م وأنه ولد حوالى سنة ٥٢٥ ق . م .
وقد اشترك أيسخيلوس في موقعة ماراثون سنة ٤٩٠
ق . م وأبلى بلاء حسناً ، كما اشترك في الحرب التي دارت
بعد عشر سنوات بين اليونان وبين الفرس بقيادة الملك
إكسركسيس Xerxes . ثم بعد ذلك قبل أيسخيلوس
دعوة هيرون طاغية سرقسطة فسافر إليها بين سنتي
٤٧٢ و ٤٦٨ ق . م . ثم عاد ثانية إلى أثينة ليركها في
عام ٤٥٨ أو بعده . ووافته منيته في صقلية بالقرب من
بلدة جيلا في سنة ٤٥٦ - ٤٥٥ ق . م . ولسنا ندرى
سبب تركه أثينة في أواخر حياته . والناظر في قصة

يعتبر أيسخيلوس رب التراجيديا اليونانية ، لا لأنه
أول من ابتدعها ، فقد مرت قبله بأدوار كثيرة تطورت
في أثنائها من أناشيد الديرامب إلى ظهور الحبيب ونشأة
الحوار ؛ ولم يكن أول من عرض قصصاً مسرحية
في أثينة ، فقد سبقه أربعة من شعراء المسرح ، إلا أن
جميع من مضوا قبله كفاهم ممثل واحد . ومن الواضح
أن ممثلاً وحيداً لا يمكنه إبراز الصراع بين الانفعالات
الإنسانية المختلفة . ويحظى أيسخيلوس في تاريخ
التراجيديا بهذه المنزلة السامية لأنه أول من استخدم
مثلاً ثانياً ، كما أنه أول من ابتدع الأحذية العالية التي
يلبسها الممثلون والملايس الفخمة والأساليب الجزلة .
ولهذا تحييه الجوقة في قصة الضفادع لأرستوفانيس
عندما تغنى لأول مرة بعد ظهوره على المسرح :

أنت يا أول يوناني ، يا من شيدت

بروجاً من الأنغام الجليلة

كما تصفه بأنه رفع التراجيديا من الخضيض إلى عالم
الفن المهيب .

كان والد أيسخيلوس يدعى يوفوريون ، وكان
يسكن قرية إيلوسيس مقر عبادة ديمتير وابنتها ومستودع
الأسرار المقدسة التي ذاع أمرها وانتشر صيتها وبقيت
لها شهرتها طوال العصور القديمة ، فتغنى بها سوفوكليس

الضفادع لأرستوفانيس التي عرضت بعد موته بخمسة سنوات يستطيع أن يرى مكانة أيسخيلوس في قلوب مواطنيه .

يقول الرواة إن أيسخيلوس كتب ما يقرب من تسعين قصة ولكنه لم يحظ بالجائزة الأولى غير ثلاث عشرة مرة ، ولم يبق لنا من مسرحياته إلا سبع . غير أن لهذه القصص الباقية أهمية كبرى : فقصة الضارعات أنموذج لأقدم قصة مسرحية وصلت إلينا والأورستيا تتألف من ثلاث قصص متكاملة وهي الثلاثية trilogy الوحيدة التي وصلت إلينا من العالم القديم كله . أما قصة بروميثيوس فهي مثال رائع للثورة على ظلم زوس من قلم شاعر ورع جعل من زوس الحامي لأفراخ الطيور في أعشاشها . وقد اشتهرت قصة «السبعة مهاجمون طيبة» بأنها قصة مليئة بروح أريس ، إله الحرب ، كما أن قصة الفرس هي المثل الوحيد لمسرحية رائعة كتبت حول موقعة لم يمض عليها أكثر من سنوات .

قصة الضارعات

وتتلخص قصة الضارعات Supplices في هروب خمسين فتاة مع أبهن ، داناوس ، حين أراد أبناء عمهن ، أيجييتوس ، الزواج منهن . لجأت هؤلاء العذارى المصريات إلى مدينة أرجوس من أعمال بلاد اليونان واحتمين بمذبح زوس فأصبحن بذلك لاجئات في كنف الدولة .

ويدخل ملك أرجوس المسرح فيتضرعن إليه أن ينقذهن ، ولكنه كملك يوناني عليه أن يستشير الجمعية العامة ، إذ ربما أفضى الأمر إلى حرب مع مصر . وهو يرسل داناوس لإثارة الشفقة في قلوب أهل المدينة . وتغنى الجوقة المؤلفة من الفتيات الضارعات أنفسهن قصة إيو وتجوالها ونزولها مصر وولادتها إيافوس (المولود باللمس) الذي حكم الديار المصرية والذي يعتبر جد الضارعات . ويعود أبوهن لإخبارهن بأن أهل أرجوس وافقوا على حماية اللاجئات . فتغنى الجوقة أنشودة رائعة تستنزل فيها على أرجوس شآبيب الرحمة والسعادة . ثم يرى داناوس سفن المصريين

قادمة . ويسرى الاضطراب والخوف إلى قلوب العذارى ، فيطمئنهن ويسرع إلى أرجوس يطلب المعونة ولكنه لا يأتي إلا بعد انتهاء الخطر . وتغنى الجوقة وهي ترتعد أغنية مليئة بالخوف والقلق . ويظهر الرسول المصري ومعه دون شك ثلة من الجنود . فيأمر الضارعات في جفوة أن يتركن المذبح وأن يعدن إلى مصر . ولكنهن يرفضن . ويحاول الرسول ومن معه استعمال العنف والقوة ، ولكن الملك يدخل في هذه اللحظة ، فيوبخ الرسول وينهره متحدياً قوة مصر . ويرحل الرسول ومن معه ، وهو ينذر بالويل والثبور . وتنتهى القصة بأنشودة تطلب فيها الفتيات حماية زوس :

أى زوس العظيم ، خلصنا

من الزواج بأبناء أيجييتوس .

كانت قصة الضارعات بلا ريب تعتبر أقدم قصة وصلت إلينا من الأدب اليوناني . لكن بردية وجدت بالهنسة بمحافظة المنيا ونشرت في عام ١٩٥١ ، قلبت الأمر رأساً على عقب ، فهي تثبت أن هذه القصة كتبت قبل موت أيسخيلوس بخمسة عشرة سنة فقط ؛ وكان الظن قدماً أنها عرضت في سنة ٤٩٢ - ٤٩١ ق.م غير أنه لمعرفة قيمة هذه المسرحية يجب أن تقارن بالمسرحيات التي كتبت قبل عصر أيسخيلوس . فهي تمثل الطراز العتيق الذي عظمت فيه أهمية الجوقة . ولا تحتاج قصة الضارعات إلى مثل ثان إلا في فصل واحد فقط . ولو حذفت أغاني الجوقة من القصة ، لما بقيت هناك مسرحية .

وقد ذاعت أسطورة الضارعات وانتشرت في بلاد اليونان واستهوت أفئدة صانعي الخزف . ولهذا الأسطورة بقية وهي أن بنات داناوس قبلن ظاهراً الزواج من أبناء عمهن ثم قتلنهم جميعاً بتحريض من أبهن عدا واحدة استسلمت لزوجها ثم طلبت منه الفرار وافتاد حياته . وقد قدمت للمحاكمة من أجل ذلك لحنّها في ميمينها ومخالفتها لأمر أبها ولكنها برئت . وكانت إلهة الحب هي التي دافعت عنها مؤكدة قوة الحب الذي لا غالب له : تصرخ السماء المقدسة اشتياقاً إلى قبلة من الأرض وتتحرق الأرض شوقاً إلى الاندماج في السماء

حتى إذا سقط ماء الحبيب السماوى على الأرض
اهتزت وربت وأنبئت من الزرع ما فيه
غذاء الإنسان والحيوان .

وقد عيب على قصة الضارعات أنها لا بطل فيها
ولا تشخيص ، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع .
فالجوقة تتألف من عذارى عاديات وقعن في خطر .
وأبوهم داناوس محب لإسداء النصيح لبناته دون
ضرورة . والاصطدام الدراماتيكي الوحيد في القصة
يحدث بين الملك ورسول المصريين . وتنتهى القصة
في سلام .

وقد كثر التساؤل لم هربت العذارى من الزواج
بأبناء عمهن ؟ وهل الزواج بابن العم محرم في العالم
القديم ؟ وليس في هذه القصة إشارة إلى الزواج من
داخل العشيرة أو خارجها ، ولم يكن الزواج بأبناء العم
حراماً في مصر أو في بلاد اليونان ، ولكن سبب
هروب الفتيات من الزواج بأبناء عمهن هو البغض
والكراهية التي تملأ قلوبهن وقلب أبيهن ضد عمهن
أجيتوس وضد أبنائه . فهن قد فرزن من زواج
بالإكراه . وقد ورد في الأساطير المتأخرة أن زوس
عاقب بنات داناوس ما عدا واحدة بقسرهن على ملء
إناء مثقوب . وقد فسر بعض العلماء هذه العقوبة على
أنها جزاء لرفضهن فكرة الزواج ، ولكن لا نجد في قصة
الضارعات أى إشارة إلى مثل هذه العقوبة .

وكانت قصة الفرس Πέρσαι تعتبر القصة
الثانية فيما وصل إلينا من مسرحيات أيسخيلوس على
اعتبار أن قصة الضارعات ترجع إلى سنة ٤٩٢ ق . م .
ولكن بردية البهنية التي سبقت الإشارة إليها أثبتت أن
قصة الفرس أكثر قدماً . وتمتاز قصة الفرس بأنها
المسرحية الوحيدة التي عاجلت بنجاح حوادث معاصرة
اشترك الشاعر فيها بنفسه . فهي تخليد لنصر أثينة في
سلاميس في سنة ٤٨٠ ق . م . وهي أجمل تعبير عن
خلاص اليونان عامة والأثينيين خاصة من نير البرابرة .
تدور حوادث القصة لا في أثينة ولا في أى بقعة
من بلاد اليونان وإنما في فارس وأمام القصر الملكي في
سوسا . وتتألف الجوقة من مستشارى الملك ووزرائه

الذين عهد إليهم بالحكم أثناء غيابه . وقد طالت غيبته
وانقطعت أخباره واستحوذ عليهم القلق على مصيره
ومصير الشباب الفارسي . وتدخل أتوسا أم الملك وقد
استولت عليها الفرع ، فقد رأت حلماً قض مضجعها :
رأت فيما يرى النائم أن امرأتين إحدهما ترتدى
الملابس اليونانية والأخرى تلبس الملابس الشرقية قد
ربطهما ابنها اكسركسيس إلى عربته . أما الثانية فظلت
ساكنة ، وأما الأولى فقد حطمت العربة وألقت بالملك
أرضاً . وتناقش الجوقة هذه الرؤيا ، ناصحة أتوسا
بالتقرب إلى الآلهة وإلى روح دارا لدرء الشر عن البلاد .

ثم يأتي رسول يحمل أخباراً منكورة : لقد هلك كل
شئ ودمرت قوات فارس تدميراً تاماً . وتظل الملكة
صامته والرسول يفيض في سرد المصائب التي حلت
بالجيوش الفارسية . فقد أذهلتها القارعة ، ولكنها تبدأ
حديثها محتفظة بكرامتها ذاكراً أن على البشر أن يصبروا
على ما ترسل السماء من نوائب . ثم تسأل الرسول أن
يخبرها عن سقط من النبلاء والأمراء وذوى الصولجان
وينجيها الرسول بأن ابنها قد نجا ولا يزال حياً يرى ضوء
النهار . فظهر الملكة سرورها ويستمر الرسول في
إخبارها بمن قتل من عطاء فارس ، ثم يحتم بأن ينسب
الكارثة إلى إله ما انحاز إلى قوات العدو فدمر الجيش
الفارسي :

هناك آلهة يحافظون على مدينة الإلهة بالاس .

أتوسا : ألم تدمر مدينة أثينة ؟

الرسول : بلى ! ولكن رجالها لم يمسخهم
سوء . وهم حصنها الحصين .

ثم يخبر الرسول الملكة عن خديعة ثيميستوكليس
— دون أن يذكر اسمه — الذى أرسل عبده إلى ملك
الفرس يخبره بعزم اليونانيين على الهرب ليلاً وما كان
من أمر الملك بسد جميع منافذ خليج سلاميس ليقع
الأسطول اليوناني في يده . وتدخل الملكة القصر لإعداد
ما يلزم لتقديم الضحايا والقرايين . وتشد الجوقة نشيداً
حزيناً تبكى فيه مصرع رجال فارس والظلام الذى
خيم على دورهم وتتوجع لفقد دارا وفتوحاته . وتخرج
الملكة حاملة القرايين وتشترك مع الجوقة في استعطاف

التي نسكنها . كانت الرابطة وثيقة بين الإنسان وعشيرته لأن التضامن العائلي كان وقاية للمرء إن اعتدى على أحد وجنة له إن اعتدى عليه . وكذلك كانت المدينة مبعث ضمان واطمئنان للمرء ما دامت قائمة ؛ أما وقوعها في يد الأعداء فكان نهاية الدمار والخراب .

كانت التراجيديا في العالم القديم تدور دائماً حول أعمال الأبطال ومصائر العظماء ، فليس هناك شخصية هامة في قصة تراجيدية إلا ولها اجلال وتقديس أو تحف بها المهابة لأمر ما . وقد عيب على يوربيديس أنه أنزل التراجيديا من عليائها لأنه — وإن احتفظ بالأسماء القديمة والشخصيات العتيقة — لم يحفظ عليها هيبتها ولم يصن كرامتها بل حاول أن يجعل من أبطال اليونان القدامى رجالاً يشهون معاصرة أو بالأحرى حاول أن يخلع ما علق بهؤلاء الأبطال من مهابة ليفذ إلى قرارة نفوسهم وسويداء قلوبهم ، وهي لا تختلف في شيء عن طبيعة البشر التي يشترك فيها الناس أجمعون . فعندما وضع أيسخيلوس قصة الفرس كان عليه لكي يجعل من مسرحيته قصة باهرة أن يخرج بها عن نطاق الحوادث المعاصرة وأن يهبها عظمة وجلالا . فإذا كان الإغريق قد قهروا الفرس ، وإذا كان الأثينيون قد دمروا جيوش فارس وأساطيلها ، فلم يفعل ذلك بشر ، وإنما كان ذلك من صنع الآلهة . واحتفاظ أيسخيلوس بهذا الشعور من أول مسرحية الفرس إلى آخر بيت فيها هو سر نجاحها وروعها . ولهذا لا نجد ذكراً لأحد من قواد اليونان في هذه القصة . ولكن الحال يختلف فيما لمس الفرس . فقد ملأ أيسخيلوس قصته بأسماء فارسية . فهذه الأسماء الغريبة أبعدت القصة عن المستوى المعتاد ، وجعلت من الجائز أن تذكر هذه الأسماء في قصة مسرحية . ثم إن الفرس وإن كانوا هم المغلوبين المهزومين فقد أظهرهم أيسخيلوس أبطالاً صناديد . لقد أنزلت بهم الكارثة الحزن والكآبة واليأس ، ولكنها لم تجعل منهم أنذالا أو جبنا . ومع فداحة القارعة لم تفقد أتوسا أم الملك كرامتها أو تظهر بمظهر غير لائق بها . وهذه الروح العالية التي عالج بها أيسخيلوس أعداء وطنه تعتبر أمراً يثير الإعجاب ولا سيما إذا قورن

روح دارا لتظهر ولتقدم لهم النصيح . ويظهر شبح دارا ، وبعد أن يستمع إلى الأخبار السيئة ، يشرح للملكة وللجوقة أسباب النكبة : إنها نبوءة قدمة كان يود ألا تتحقق بهذه السرعة . ولكن متى سارع المتكبر إلى تدمير نفسه ، وجد الآلهة إلى جواره تدفعه دفعاً ! ويعود شبح دارا إلى قبره بعد أن ينصح الجوقة بعدم شن حرب على بلاد اليونان مرة أخرى مهما عظمت قوات فارس . فأرض بلاد اليونان حليفة لأهلها . وتعود الملكة إلى القصر ويأتي اكسركسيس في أسبال ممزقة فريداً وحيداً فتصحبه الجوقة إلى القصر . وتنتهي القصة بين تفجع الملك وعويل الجوقة .

تعتبر قصة الفرس من أروع ما كتب أيسخيلوس ، ولكنها مع ذلك قصة تاريخية ، ومن الصعب تأليف قصص مسرحية عن انتصارات قومية معاصرة . وقصة الفرس على الرغم من روعتها موضوعها بسيط وليس بها تشخيص ولم تكن أول قصة كتبت عن انتصار الأثينيين . فقد وضع فرينيكخوس قصة مسرحية تحمل نفس الاسم .

ولكن على الرغم من أن الأشعار الوطنية قد ينقصها الإلهام ، لكن المشاعر الوطنية قد تكون في بعض الأحيان موضوعاً لقصائد رائعة . والهزيمة تهز المشاعر وتترك آثاراً أكثر دواما من النصر ، ولذا كانت الهزيمة دائماً حافزاً على نظم شعر رائع . ولكن يمكن أن ينظر إلى النصر من زاوية أخرى : من زاوية الخلاص من خطر محقق . وفي هذه الحالة يمكن للنصر أن يصبح موضوعاً لشعر خالد . ولقد كان من خصائص أيسخيلوس أن يسمو بأى موضوع يتناوله ، ولهذا خلصت قصة الفرس من العوامل التي كان من الممكن أن تعمل ضدها . وقد لاحظنا أن قصة الفرس موضوعها بسيط وقلنا إنه ليس بها تشخيص ، ولكن حبكة الموضوع ودراسة الأشخاص ، إن لم توجد ، لا تضير الأعمال الفنية التي بلغت الذروة ، وإن كانت جودة الموضوع تجعل من المؤلفات التي لا تعلو إلى الذروة قصصاً جذابة تثير الاهتمام . كما يجب أن نذكر أن المدين القديمة لصغرها وارتباط سكانها بها تعلق بها أهلها أكثر من تعلقنا بالمدين

كما يحدث في أيامنا هذه في الدعاية ضد الأعداء في أثناء الحروب من افتراء الكذب واختلاق ما لم يحدث على الإطلاق .

لم يعرف أيسخيلوس كبير اهتمام للدقة في ذكر المواقع الجغرافية . وهو لا يضطرب إن كان المنظر الأول في سوسا وقبر دارا في مكان بعيد عن مقر الحكم . ولم يشأ أيسخيلوس أن يجعل مكان عرض القصة في أى ركن من بلاد اليونان بين الإغريق المنتصرين بل جعل المسرح يمثل قلب بلاد الفرس . وأكثر أيسخيلوس من ذكر كلمة هوبريس ὕβρις لأنها تحوى مغزى القصة كلها . فالكبر يسبق الفشل والكبرياء يتبعها السقوط . وقد تجر اكسركسيس وبغى وتعدى حدود البشر وداس تماثيل الآلهة وهدم المعابد المقدسة .

إن الفرس لا يعرفون مبدأ الوسط ، فهم مسرفون على أنفسهم غزاة متجبرون قهروا العالم براً وقد أتوا لقهر البحار . لم يكفهم ملك آسيا ، فهم يتوقون الآن إلى اخضاع أوربا .

ولكن على الرغم من تكبر الفرس واعتدائهم ، فإننا في هذه القصة نميل إليهم ونشفق عليهم ، وهذا من عمل أيسخيلوس الذى أضفى على هذه القصة ألواناً شرقية سواء كانت فارسية أو غير فارسية . وقد وصل إلى هذه النتيجة باستعمال كلمات عجيبة لها رنين غريب وباستخدام أوزان وأنغام موسيقية قريبة من الأوزان والأنغام الشرقية .

كان أيسخيلوس في نظر النقاد القدامى شاعر التراجيديا الملهم . وهذا الإلهام قد يكون عنيماً بحيث لا يخضع لقواعد الفن . ويطلق عليه أرسطوفانيس لقب « الأمير الباكي » نسبة إلى باكخوس ، إله الخمر وكانت طقوسه صاحبة منفعة يستولى الإله فيها على مشاعر عباده الذين شربوا حتى فقدوا السيطرة على عيولهم وعقولهم . ويذكر أثيناؤوس وغيره أن أيسخيلوس كان لا يقول الشعر إلا وهو نشوان μέθυον ، وقد استعمل اللفظ هنا مجازاً ، فهم لا يذهبون إلى المعنى الحرفي للكلمة ، ولكنهم يشرون إلى أنه عند كتابة قصصه يكون أيسخيلوس في حال لا تختلف عن حال من انتشى .

وقد ذكر بلوتارك أن جميع مسرحيات أيسخيلوس مفعمة بديونيسوس . ويقال إن سوفوكليس لاحظ أن أيسخيلوس يجيد ولكن دون أن يدري ما يفعل .

وسوفوكليس يعنى أن زميله الأكبر واقع تحت تأثير إلهام ، ولكن سوفوكليس نفسه يعتمد إلى الإجادة فيصل إلى ما يريد . ومن الممكن أن نشير هنا إلى تلك الأقصوصة التى حكاهها پاوسانياس من أن أيسخيلوس وكان غلاماً عهد إليه بحراسة كرم فنام ورأى في منامه أن ديونيسوس إله التراجيديا قد ظهر له وأمره أن يدبج مسرحيات تراجيدية . فلما استيقظ ، حاول قرض الشعر فوجده سهلاً يسيراً .

أسلوب أيسخيلوس

يتميز أسلوب أيسخيلوس بالجلال والجزالة وهو بعيد عن البساطة والوضوح اللذين نراهما في العصر الذهبي للأدب اليونانية ، ويمكن أن يقال دون مبالغة أنه سابق للعصر الكلاسيكى . فهو يكتب إذا أراد في أبسط لغة وأسهلها ، فليس هناك أسهل من قول كليتمنيسترا :

هذا هو زوجى ، أجاممنون

أو قول أورستيس الذى يرى إلهات الانتقام ولا يراهن أحد غيره :

إنكم لا ترون هؤلاء ، ولكنى أراهن .

ولكن هذه أمثلة نادرة . فأيسخيلوس محب عادة للأساليب الفخمة ، تواق إلى التأثيرات التى تحدثها الألفاظ . وهذه الخاصية هى الأساس الذى بنى عليه كل ما وجه إليه من نقد في قصة الضفادع لأرسطوفانيس .

فيوربيديس لا يرضى عن الغموض أو التعقيد الذى نجده في أساليب أيسخيلوس . والذوق الأتيكى يطالب بالدقة في استعمال الألفاظ وبالوضوح في التعبيرات والبساطة في التراكيب . وأيسخيلوس لا يرضى أن توضع قيود على حريته ، فلغة الأبطال والآلهة لا يمكن أن تنحط إلى لغة السفلة والسوقة . ويصف يوربيديس في قصة الضفادع أسلوب أيسخيلوس بأن ألفاظه كالجبال ، وأنها لا تشبه في شيء لغة البشر . ويتهم

في قصة الضفادع إلى هذه الطريقة العجيبة في استعمال الألفاظ الغريبة ، إذ يقول ديونيسيوس :
أجل عندما ترك (دارا) قبره ، سررت أما سرور .

وقد وقفت الجوقة تلوح بأيديها قائلة : إا أو أي

Iayoi

أما في قصة الضارعات فلم ينجح أيسخيلوس في استعمال الألفاظ الغريبة لإيهام السامع أنه ينصت إلى لغة أعجمية . وقد جر استخدامه لهذه الكلمات الغريبة في قصة الضارعات إلى تحريف كثير في المخطوطات . وقد سار ثيموثيوس في أنشودة الديثرامبوس التي وضعها في أواخر القرن الخامس في إثر أيسخيلوس في استعمال الألفاظ الغريبة واللحن لمثل أحد الفرس وهو يطلب الرحمة .

أفكار أيسخيلوس

أهم ما نخلب الألباب في مسرحيات أيسخيلوس فضلاً عن شاعريته الباهرة هي خطراته الدينية العميقة التي تكاد تلقى به في حظرة المتصوفة . وليس بعيد أن يكون أيسخيلوس قد اطلع على الأسرار الدينية في معبد ديميتير في قرية إيلوسيس ، مسقط رأسه . وقد عاش أيسخيلوس في عصر أثقلت كاهله الأساطير القديمة وسدت أمامه طريق الوصول إلى نور الحقيقة . ولم يكن هناك غير طريقين للتخلص من هذا العبء الذي خلفته الأجيال المتعاقبة ، سار أيسخيلوس في أحدهما وسار يوربيديس في الآخر . وما يشهد لأرستوفانيس بحدة الذكاء وعمق التفكير اختياره في مباراته في قصة الضفادع لأيسخيلوس ويوربيديس فهما يمثلان طرفي نقبض في تفكيرهما الفلسفي . فقد رفض يوربيديس الأساطير رفضاً باتاً ، ومال أيسخيلوس إلى إبراز الحقائق الغامضة في تلك الأفاصيص التي شاعت على ألسنة اليونانيين . ولكن كلا من الشاعرين كان يرنو إلى تنزيه الإله مما تصمه به الأساطير . وليس هناك أجمل من إشادة أيسخيلوس بعدالة زوس التي تحمي الطيور في أعشاشها من أي اعتداء عابث . وزوس هو المخلص

أيسخيلوس منافسه يوربيديس في نفس القصة بأنه أفسد الأخلاق وعلم كل طفل يستطيع أن يحب صنعة الكلام وتدبيج الخطب . وهذا ما أشاع الاضطراب في الملاعب وعود البحارة — على جهلهم وحطهم — الرد على ضباطهم . ويأسف أيسخيلوس على تغير الحال : فقد كان البحارة في زمنه لا يفكرون إلا في تناول طعامهم والانكباب على مجاديفهم . وهناك خاصية أخرى في أسلوب أيسخيلوس نجدها كذلك في الشعر القديم ، ولكن شعراء التراجيديا في العصر الكلاسيكي أبوا استخدامها لأنها تشبه عبث الأطفال ، وأعني بها استخدام الألفاظ أو ما يشبه الألفاظ من تعبيرات بعيدة عن الأساليب المألوفة ، كقولهم « حمام البجع » للبحر و « الديك الأحمر » للنار . وقد استعمل هوميروس مثل هذه التعبيرات في الإشارة إلى الآلهة ، كقوله : « الأعرج الشهير » إشارة إلى إله النار ، هيفايستوس و « منزلزل الأرض » إشارة إلى بوسيدون . وتكثر أمثال هذه الصفات في هسودس كقوله « حامل داره » للحلزون ، و « المحدة » للنملة . وقد أغرم بهذا الطراز أيسخيلوس واستعمله بكثرة ، فالسمك الذي يأكل من غرق من الفرس يسميهم : « أبناء البحر الطاهر الذين لا ينطقون » . ولكنه كثيراً ما يضيف بعد اللغز شرح ما استغلق من هذه التعبيرات . فهو يقول : « كلب زوس الطائر ، النسر الأحمر » . وفي بعض الأحيان تأتي الكلمة العادية أولاً ثم يتبعها باللغز فهو يقول : « الدخان ، أخت النار » و « النقع ، رسول الجيش الصامت » ومن خواص أيسخيلوس التي تحتاج إلى مهارة استعمال الكلمات الغريبة على نهج يجعل السامعين يظنون لأول وهلة أنهم يستمعون إلى لغة أجنبية ، ففي قصة الفرس استعمل أيسخيلوس هذه الخاصية بنجاح كبير . فكبار المستشارين من الفرس وهم يطلبون إلى دارا أن يترك قبره وأن يأتي إليهم ليقدم لوطنه ما ينبغي من نصيح ، يخليل إلى القارئ وإلى السامع لكثرة استعمال ألفاظ التوجع الغريبة والكلمات النادرة أن المستشارين يستعملون لغة غير يونانية . وقد أشار أرستوفانيس

Soter والمخلص الثالث ، حكم العالم قبله أورانوس حكماً غاشماً ، وخلفه كرونوس الذى كان يلتهم أبناءه حتى أنقذت ريا ابنها زوس الذى ما لبث أن تغلب على أبيه واعتلى عرش العالم . وفكرة الخلاص فكرة قديمة ذاعت وانتشرت فى العالم القديم بعد عصر الإسكندر الأكبر . ونحن نلاحظ أن بطليموس الأول حمل هذا اللقب (سوتر) ؛ وأصبح من المعتاد أن يحمله الآلهة فى الديانات الشرقية . وقد قيل فى سبب ما نال فكرة الخلاص من ذبوع وقبول فى العصر الهيلينستى حتى أصبحت المحور الذى تدور حوله الفلسفتان الرواقية والأبيقورية وحتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كل أديان الشرق ذاك الاضطراب الذى حل بالشرق الأوسط عامة وبلاد اليونان خاصة بعد موت الإسكندر وتفاقم الشر بين خلفائه وحروبهم التى لا تنقطع . فأصبح الفرد وهو لا يأمن يومه أو غده ، بمسعى غنيا ويصبح مملقاً ، ويناام هادئ البال ليستيقظ طريداً مشرداً . ولكن الفكرة كانت موجودة فى أساطير الآلهة الذين لقوا حتفهم ، ثم بعثوا وأصبحوا نماذج للموت والنشور . ومن هؤلاء ديونيسوس نفسه ، إله التراجيديا .

ولكن كيف أصبح زوس مخلصاً ؟ وكيف رفع أيسخيلوس عنه أوزاره واضطهاده للبشر ؟ ولقد كتب أيسخيلوس نفسه قصة بروميثوس ذلك المارد الذى أنزل به زوس أقصى أنواع العقاب لمعاونته بنى الإنسان .

بدأ أيسخيلوس أولاً برفض ما اعتاد الناس على تسميته بحسد الآلهة فهو لا يؤمن بأن السعادة الإنسانية تجر إلى السقوط . فالمال إذا لم يقترن بظلم أو إثم فلن يودى إلى الخراب . ولكن لكل إنسان بل لكل كائن حى مويرا Moira وهى نصيبه المحدود فى متع الحياة وآلامها . فإذا تخطى حده ، فقد ارتكب جريمة تعدى الحدود ὕβρις وحق عليه العقاب .

ولكن العالم على الأقل ظاهرياً مملوء بالبشر ، ومن الصعب التفرقة بين الظالم والمظلوم . والقوة فى هذه الدنيا هى الحق أو بالأحرى مصدره . ومنطق هذا

العالم ، كما فى قصة الصقر الذى أمسك بعندليب فى أشعار هسيودوس ، لا يتفق مع وجود عدالة شاملة . ونصير الإنسان الوحيد ، أعنى بروميثوس ، الذى اجتراً على معاونة البشر والوقوف فى وجه زوس قد لقي جزاء مروعاً . فما الحل الذى ارتضاه أيسخيلوس ؟ هذا الحل موجود فى الأساطير القديمة ، وفى أسطورة بروميثوس نفسها . وقد أشار أيسخيلوس إليه إشارة بعيدة فى قصة بروميثوس . ذلك أن بروميثوس يعرف سراً لن يطلع عليه أحداً مهما صب عليه من عذاب إلا بشروطه التى يرتضيها . وإذا بقى هذا السر خافياً على زوس ، فلن يكتب له الخلود على عرش هذا العالم . ويحاول زوس بكل وسيلة أن ينتزع هذا السر الرهيب من بروميثوس ولكن دون جدوى . سلط زوس نيراً ينتزع كل يوم كبد بروميثوس ، فلم يزد هذا إلا عناداً . ألقى به فى تارتاروس مكبلاً بالأغلال وبقي فى هذا الجحيم ثلاثين ألف سنة ، ولكنه لم يبح بسرّه . وأخيراً تم الصفاء والصلح بينهما وعرف زوس أنه إن تزوج إلهة البحر ثيتيس Thetis فستلد له ولداً أقوى منه . فأسلمها إلى أبيليوس Peleus فولدت له أخيل ، بطل الإلياذة . فما هذه الصفة الجديدة التى اكتسبها زوس فصبرته إلها منزها عن كل النقائص ؟ هذه الملكة هى القدرة على التفكير والتعليم وهى التى سماها اليونانيون سونيسيس σῦνεσις . فقبل زوس ، كان يحكم هذا العالم قوى عمياء تشبه قوى الطبيعة التى لا تفرق فى تدميرها بين صالح وطالح . وهذا العقل أو الفكر الأبدى هو الذى يتوجه يوربيديس إليه بالدعاء فى قصة الضفادع لأرستوفانيس ، وترى أتباع هيبوليتوس فى قصة يوربيديس التى تحمل عين الاسم يؤمنون بوجوده . وبوساطة هذه الملكة ، غير زوس من طريقته فى الحكم :

زوس ، زوس ، أيا كان هو

إن كان هذا الاسم حبيباً إليه ،

فهذا الاسم سأناديه ،

لقد بحثت فى الأرض وفى السماء وفى الهواء

عن ملجأ ، فلم أجد سواه ،
إن استطاع قلبي ، قبل أن يموت ،
أن يلقي بعبء هذا الغرور .

* * *

وتستمر الجوقة في قصة أجا ممنون لأيسخيليوس
في مديح زوس ذاكرة من حكما قبله ، وأنه المخلص
الثالث ، ثم تضيف :

لن يصل أحد إلى ما يتمنى
إلا إذا عرف قلبه

زوس ، القاهر الصديق ،

زوس ، المرشد الذي وجه

الناس إلى التفكير ،

زوس ، الذي جعل من

الأم معلماً للبشر .

نماذج

(أمام قبر دارا بعد أن قدمت الملكة أتوسا
القرايين ، وبعد أن أنشدت الجوقة رثاء حزينا ناشدت
فيه دارا أن يخرج من قبره ليقدم النصائح لبني وطنه) .
شبح دارا (وقد ظهر على القبر) موجهاً حديثه إلى
أفراد الجوقة :

يا شيوخ فارس ، يا أكثر الناس ولاء
وإخلاصاً ، أى قرنائى فى شبانى ، ما الذى
حل بمدينتنا من نصب ؟ إن الأرض لتتفجج
مهترة وقد قطعت إرباً . ولقد دب إلى
الفرع ، وأنا أرى زوجى بالقرب من
قبرى . وقد تقبلت ما صب من قرايين
بقبول حسن . ولقد وقفتم أنتم أنفسكم إلى
جوار قبرى تشدون لحناً حزيناً وترفعون
أصواتكم بعويل يبعث الموتى من الأجداث .
ولقد ناديت على بصوت تنفطر له الأكباد .

غير أنه ليس من اليسير الخروج من المقابر
فأله الموتى يفضلون على أى حال الحيء
على الرحيل . ومع ذلك أتيت إليكم ، لأننى
سيد عظيم هنالك . ومع كل فاسرع ، حتى

لا يوجه إلى اللوم للإبطاء والتأخير . أى شر
قاصم نزل بالفرس ؟

الجوقة : أصابنى الروح لمشاهدتك ، وفى قلبى خشية
لمخاطبتك ، لما يسيطر على فؤادى من هيبة
قدمة .

دارا : جئت إلى هنا مصيحاً إلى عويلك ، فلا
تقصن على قصة طويلة ، بل خبرنى فى إنجاز
الخبر كله ، طارحاً استحياءك منى وراء
ظهرك .

الجوقة : إني أخشى إجابة طلبك ، وأخاف أن أوجه
إليك الحديث ، فأضطر إلى استعمال ألفاظ
لا تجوز فى مخاطبة الأصدقاء .

دارا : إن كانت هيبتي القدمة قد عطلت قرائحكم ،
فقلولى بوضوح ، آيتها السيدة النبيلة ،
يا شريكى فى حياتى مدة طويلة ، بعد أن
تركى هذا البكاء والعويل . فربما كانت
هناك نائبة من نوايب البشر حلت بفارس .
فكثير من الشر يأتى من البر ، وكثير منه
مصدره البحر ، إن امتد بالمرء العمر .

أتوسا : يا من فاق جميع البشر فى السعادة ، يا من
قضيت حياتك الطويلة ، طالما كنت ترى
أشعة الشمس ، مبجلاً بين الفرس كإله .
لقد كنت مبعث الحسد فى حياتك ، وإني
لأغبطك حتى على مماتك قبل أن ترى هذه
الشرور المستطيرة . هذه ، يا دارا ، القصة
كلها فى جملة موجزة : لقد هلك سلطان
فارس .

دارا : وكيف ذلك ؟ أصب عليهم سوط عذاب ،
أم انتشر بينهم وباء أم شب فى المدينة
نزاع ؟

أتوسا : كلا . ولكن الجيش كله سقط حول أثينة .

دارا : من من أبنائى كان يقود ذلك الجيش ؟

أتوسا : إكسر كسيس العنيد . وقد أخذ معه سكان
القارة جميعاً فتركها خلواً من الرجال :

دارا : وبأى نوع من الجنود ، يا لشقائه ، قام بتلك المحاولة الجنونية ؟ أبالمشاة أم بالبحارة ؟

أتوسا : بكليلهما . فقد كان لمعسكريه قبلتان .

دارا : وكيف استطاع جيش جرار من الرجال أن يعبر المضيق ؟

أتوسا : ربط ما بين شاطئيه بحبل هندسية فنجح في خلق طريق في اليم .

دارا : وهل فعل ذلك ليقفل البسفور العظيم ؟

أتوسا : هذا ما حدث فعلاً . لقد أعانه عليه إله ما .

دارا : ويلي ! يا له من إله قدير أفقده صوابه !

أتوسا : نحن الآن نشاهد نتائج عمله وأى شر نجح في القيام به .

دارا : وماذا حدث لهم مما جعلكم ترفعون أصواتكم بالعويل ؟

أتوسا : قضت هزيمة الأسطول على الجنود من المشاة

دارا : وهكذا سقط الخلق جميعاً صرعى الحراب ؟

أتوسا : نعم . ولهذا تبكى مدينة سوسا فقد جميع رجالها .

دارا : وا أسفاه على جنودنا الأبطال عماد جيشنا الباسل !

أتوسا : لقد هلك الناس جميعاً في باكتيريا ، ولم يبق بها الآن شيخ كبير .

دارا : يا لشقائك ، يا بنى ! يا للشباب الذى سقط من أبناء الحلفاء !

أتوسا : ويقال إن اكسر كسيس ، وحيداً فريداً مع عدد قليل . . .

دارا : (مقاطعاً) أى نهاية أصابته ؟ هل وجد وسيلة للخلاص ؟

أتوسا : نجا بشق الأنفس إلى القنطرة التى تصل الأرضين .

دارا : وصل سالماً إلى الجانب الآخر من الياينة ؟

أتوسا : أجل . فالخبر صريح وواضح وليس فيه ريبة .

دارا : ما أسرع ما تحققت النبوءة ، فأصابت ابنى ! وقد صب زوس على ابنى نتيجة هذا الوحي ؛ أما عنى ، فقد كنت أدعو أن يأتى بها الآلهة بعد أمد مديد . ولكن إن سارع المرء إلى الهلاك ، دفعه الإله دفعة قوية . أما الآن فقد تفجر ينبوع الشر ، فأصاب جميع أصدقائنا . ولكن ابنى لم يكن ليدرك هذه الأمور ، فاعتمد على شبابه المتهور . وأمل أن يمسك جريان الهيليسبونتوس المقدس فى الأغلال كأنه رقيق ، البسفور نهر الإله ، وحاول تغيير مجراه ، محيطاً المجرى الكبير بالقيود التى صنعتها المطارق ، وبذا خلق معبراً لجيش جرار .

ومع أنه بشر إلا أنه ظن - وهذا حمق - أنه سيتغلب على جميع الآلهة وخاصة على بوسيدون . وكيف لا يكون هذا مرضاً عقلياً استولى على ابنى ؟ وإنى أخشى أن يصبح المال الذى جمعه بالكد والتعب غنيمة لأول طارق .

* * *

الجوقة : ما هذا ، يا مولاي دارا ؟ ماذا تستخلص من كلماتك ؟ وكيف تخلص الشعب الفارسى من هذه النوائب ويسير إلى ذروة النجاح ؟

دارا : إن لم تغزوا بلاد اليونان ولو كان الجيش الفارس أكبر من ذلك . فأرض يونان نفسها تهب حليفة لأهلها .

الجوقة : ما معنى هذا ؟ وكيف تحالفهم أرضهم ؟

دارا : إنها تهلك جوعاً جاهرينا الغفيرة .

الجوقة : فإن غزونا بجيش منتقى خفت أسلحته ؟

دارا : لن يحظى حتى الجيش المقيم الآن فى بقاع من بلاد اليونان بالرجوع سالماً .

الجوقة : ماذا تعنى ؟ ألا يعبر كل جيش الفرس مضيق هيلي من أوروبا ؟

دارا : سيعبر عدد قليل جداً من هذا الجيش
 الغفير ، إن وجب أن نصدق نبوءات
 الآلهة ، ناظرين إلى ما حدث فعلاً الآن .
 فتبوءات الآلهة لا يتحقق بعضها ، ويتحقق
 بعضها الآخر . وإذا كان ذلك كذلك ،
 فأمل فارغ أن يترك (اكسر كسيس) عدداً
 من الجنود المختارين . وهم يقيمون الآن حيث
 يروى نهر اسوبوس السهل بمياهه التي تجلب
 الخصب الحبيب إلى بلاد بيوتيا . وهم ينتظرون
 قضاءهم المحتوم وما كتب عليهم من تحمل
 الشرور ، جزاء ظلمهم والحادهم لأنهم
 لم يتورعوا عندما جاءوا إلى بلاد اليونان
 من نهب تماثيل الآلهة وحرق المعابد . وقد
 دمرت المذابح واقتلعت هياكل الآلهة من
 جذورها دون تمييز . لقد كثرت سيئاتهم
 وسيكون عذابهم شديداً . وستحل بهم
 مصائب أخرى في المستقبل . وليس هناك
 إلى الآن من أساس متين يقيمهم الشر . إن
 المتاعب لتظهر على رؤوسهم كما تسيل المياه
 من الينابيع . وسيراق دم القتلى غزيراً في
 أرض بلاتيا على الحراب الدورية . وستقوم
 الجثث على الشاطئ دليلاً صامتاً لأعين الناس
 حتى الجيل الثالث على أنه ينبغي ونحن بشر ،
 أن تكون أفكارنا متواضعة . فالتعدي إذا
 ما ازدهر أخرج ثماراً من الأسى وجنى
 المرء منه محصولاً من اليأس . فإذا شاهدنا
 أمثال هذه الأشياء وما وقع من جرائمها من
 عذاب ، وجب علينا أن نفكر في أثينة وفي
 بلاد اليونان . لا يحقرن أحد حظه الحالي
 جرياً وراء حظ آخر ، فيذهب حظه
 الحسن . لأن زوس يعاقب على الأفكار
 المتعجرفة ، وهو قاض قاس . ولهذا قدموا
 النصيحة لذلك الشاب كي يثوب إلى رشده ،
 قائلين له قولاً لئلاً ، وحولوا بينه وبين

إغضاب الإلهة بتهوره وكبرائه . أما أنت ،
 أيتها العجوز الحبيبة ، يا أم اكسر كسيس ،
 ادخلي دارك وانتقي ثوباً لائقاً قابلي به ابنك
 فلابسه المزركشة قد مزقت في كل موضع
 من جسده حتى ظهرت خيوطها المتقطعة
 بسبب ما نزل به من آلام وما حل به من
 نوائب . أما أنت فاشرحي صدره وخففي
 عنه بحديثك ، فأنت الوحيدة التي إن سمع
 كلامها فسيصبر ويحتمل . أما أنا فسأعود
 إلى باطن الأرض المظلم . أما أنتم ، أيها
 الشيوخ ، فوداعاً . متعوا أنفسكم كل يوم ،
 على الرغم مما يحيط بكم من شر : فالمال لا
 نفع له عند الأموات .
 (تختفي شبح دارا)

الجوقة : يا لكثرة النوائب الحاضرة والمستقبلية التي
 أبكاني سماعها والتي ستحل بالفرس !

* * *

وبعد فترة تقضها الجوقة في رثاء دارا وتعيد
 محاسنه ، يظهر اكسر كسيس يندب حظه :
 اكسر كسيس : ويلي !

يا لشقائي وحظي البغيض
 الذي فاجأني على غرة

يا له من إله قاس أناخ
 بوحشية على شعب فارس !

ماذا أصابني ، أنا الشقي ؟ !
 لقد انحلت قوى ركبتي عند

ما وقع بصري على هذه الجماعة من
 المواطنين المتقاربة في السن .

أى زوس ، ليتني مت قبل هذا
 مع من قضى نحبه ، وليت

الموت لفني في ظلامه مع أولئك
 الذين حم قضاؤهم .

ويستمر اكسر كسيس في الندب والعيول وتعاونه
 الجوقة وتنتهي القصة بهذه الحاتمة الصاخبة الحزينة .